الفصل الثاني

النثر

النثر أسبق أنواع الكلام في الوجود لقرب تناوله، وعدم تقيده، وضرورة استعماله. وهو نوعان: مسجَّع إن التزم في كل فقرتين أو أكثر قافية، ومرسل إن كان غير ذلك. وقد كان العرب ينطقون به معرباً غير ملحون لقوة السليقة، وفعل الوراثة، وقلة الاختلاط بالأعاجم. اللهم إلا هيئات المنطق فقد اختلفت لأسباب طبيعية في الترقيق والتفخيم والإبدال والإمالة. ولم يُعن الرواة من منثورهم على كثرته إلا بما علق بالذهن لنفاسته وبلاغته وإيجازه، كالأمثال والحكم والوصايا والخطب والوصف والأقاصيص.

فالمثل جملة مقتطعة من القول أو مرسلة بذاتها تنقل عمن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير. وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية، كقولهم: وافق شَنُّ طَبقةَ. ولأمر ما جدع قَصيرُ أنفه. ويداك أو كتاوفك نفخ. وقد تعاقب العلماء على جمعها وشرحها. وأشهر هؤلاء الميداني المتوفى سنة 518هـ، فقد جمع كتابه: (مجمع الأمثال) من نحو خمسين كتاباً، وكاد يستوعب فيه المأثور من القديم والمشهور من الحديث ورتبه على حروف المعجم.

والحكمة قول رائع موافق للحق سالم من الحشو. وهي ثمرة الحُنكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة، كقولهم: الخطأ زاد العَجول. من سلك الجَدد أَمِن العثار. عِيٌّ صامت خير من عي ناطق.

والخطبة والوطنية كلتاهما يزاد بها الترغيب فيما ينفع وعما يضر، إلا أن الأولى تكون على ملأ من الناس في المجامع والمواسم. والأخرى تكون لقوم معينين في زمن معين، كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو الموت.

مميزات النثر الجاهلي

يمتاز النثر في الجاهلية بجريانه مع الطبع، فليس فيه تكلف ولا زُخْرُف ولا غُلوُ. يسير مع أخلاق البدوي وبيئته، فهو قوي اللفظ، متين التركيب، قصير الجملة، موجز الأسلوب، قريب الإشارة، قليل الاستعارة، سطحيُّ الفِكرة. وربما تساوَقت فيه الْحِكم واطّردت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة.

الخطابة

الخطابة كالشعر لُحمْتُها الخيال وسُدَاها البلاغة. وهي مظهر من مظاهر الحرية والفروسية، وسبيل من سُبل التأثير والإقناع. تحتاج إلى ذَلاقة اللسان، ونَصاعة البيان، وأَناقةِ اللهجة، وطلاقة البديهة. والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء، وأولو غيرة ونجدة. فكان لهم فيها القدم السابقة والْقِدْحُ الْمُعَلّى. وقد دعاهم إليها ما دعا الأمم البدوية في الفخر بحسبها وتِجَارِها، والذَّود عن شرفها وذمارها، وإصلاح ذات البْين بين الحْيين، والسفارة بين رءوس القبائل وأَقيالهم، أو بين الملوك وعمالهم. وكانوا يدربون فتيانهم عليها منذ الحداثة، ويحرصون على أن يكون لكل قبيلة يشد أَزرها، وشاعر يرفع ذكرها. وربما اجتمع الصفتان في واحد.

أما أُسلوبها فكان رائع اللفظ، خلاب العبارة، واضح المنهج، قصير السجع، كثير الأمثال. وهم إلى قصارها أميل لتكون أعلق بالصدور وأذْيع. ومن عاداتهم فيها الوقوف على نشر من الأرض أو القيام على ظهر دابة، ورفع اليد ووضعها، والاستعانة على العبارة بالإشارة، واتخاذ المخاصر بأيديهم، والاعتماد على الصفاح والرماح أو الإشارة بها.

وكانوا يحبون من الخطيب أو يكون حسن الشارة، جهير الصوت، سليم المنطق، ثبتَ الجنان. وأشهر خطبائهم في هذا العصر قسُّ بن ساعدة الإيادي، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وأكثم بن صيفي التميمي، والحارث بن عباد البكري، وقيس بن زهير العبسي، وعمرو بن معد يكرب الزُّبيدي، وحسبنا أن نترجم لخطيبين من أعلامهم وقوفاً بالطلب عند الغرض من هذا المختصر.

الخطباء

قسُّ بن ساعدة الإيادي

(المتوفى سنة 600م)

حياتـه: هـو أسـقف نجـران وخطيـب العـرب وحكيمهـا وحَكَمُهـا. كـان يـؤمن بـالله ويـدعو إليـه بالحكمـة والموعظـة الحسـنة. ويقـال: إنـه أول مـن خطـب علـى شـرف، واتكـأ علـى سـيف، وقـال فـي خطبـه أمـا بعـد. سـمعه النبـي صـلى الله عليـه وسـلم فـي عكـاظ فـأثنى عليـه. ويـروى أنـه قـال فيـه: (رحـم الله قسـاً! إنـي لأرجـو يـوم القيامـة أن يُبعـث أمـة وحـده). وكـان يفـد علـى قيصـر مـن حـين إلـى حـين فيكرمـه. ولكنـه صـدف عـن الـدنيا وعـاش علـى الكفـاف يعبـد الله ويعـظ النـاس حتـى تـوفي سنة 600م، وقد عمَّر طويلاً.

أسـلوبه: إن صـح مـا أُثِـرَ عنـه مـن النثـر فقـد كـان أسـلوبه مطبوعـاً مسـجوعاً، شـديد الروعـة، متخيـر اللفـظ، قصـير الفواصـل. يعمـد فيـه إلـى ضـرب الأمثـال واسـتنتاج العبـر مـن مصـارع الطغـاة وظـواهر الكـون. ولـه شـعر يجمـع إلـى الجزالـة رقة التعبير وَقوة التأثير كما يتجلى ذلك فيما سنورده من كلامه.

قال من خطبته في سوق عكاظ:

أيهـا النـاس! اسـمعوا وعـوا، إنـه مـن عـاش مـات، ومـن مـات فـات، وكـل مـا هـو آت آت. ليـل داج، ونهـار سـاج، وسـماء ذات أبـراج، ونجـوم تزهـر، وبحـار تزجـر، وجبـال مرسـاة، وأرض مُـدْحاة، وأنهـار مجـراة. إن فـي السـماء لخبـرا، وإن فـي الأرض لعبـرا. مـا بـال النـاس يـذهبون ولا يرجعـون؟ أرضـوا فأقـاموا؟ أم تركـوا فنـاموا؟ يـا معشـر إيـاد، أيـن الآبـاء والأجـداد، وأيـن الفراعنـة الشـداد؟ ألـم يكونـوا أمكثر منكم مالاً وأطول آجالاً؟ طحنهم الدهر بكلكه، ومزقهم بتطاوله.

فـــي الـــذاهبين الأولـــين ... مـــن القـــرون لنـــا بصـــائر

لمـــا رأيـــت مـــواردا ... للمـــوت لـــيس لهـــا مصـــادر

ورأيـــت قـــومي نحوهـــا ... يســـعى الأصـــاغر والأكـــابر

لا يرجـــع الماضـــي إلـــيَّ ولا مـــن البـــاقين غـــابر
أيقنـــت أنـــي لا محـــا لـــة حيـــث صـــار القـــوم صـــائر

ومـن حكمـه: مَـن عيـرَّك شـيئاً ففيـه مثلـه. ومـن ظَلمـك وجـد مـن يظلمـه. وإذا نهيـت عـن الشـيء فابـدأ بنفسـك. وكـن عـفَّ العَيلْـة مشـترك الغنـى. ولا تشـاور مشـغولاً وإن كـان حازمـاً، ولا جائعـاً وإن كـان فهمـاً، ولا مـذعوراً وإن كـان ناصحاً. ومن شعره قوله يرثى أخوين له وقد وقف على قبريهما بدير سمعان:

خليلـيَّ هُبـا طالمـا قـد رقـدتما أجـدَّ كمـا لا تقضـيان كراكمـا!
ألـم تعلمـا أنـي بسـمعان مفـردٌ ومـاليَ فيـه مـن حبيـب سـواكما؟
أقـيم علـى قبريكمـا لسـت بارحـاً طَـوْال الليـالي أو يجيـبَ صـداكما
حرى الموت مجرى اللحم والعظم منكما كـأن الـذي يسـقي العقـار سـقاكما!
فلـو جُعلـت نفـسٌ لـنفس وقايـةً لجُـدتُ بنفسـي أن تكـون فـداكما
سـأبكيكما طـول الليـالي ومـا الـذي يـرد علـى ذي عَولـة إن بكاكمـا!

عمرو بن معد يكرب الزبيدي

(المتوفى سنة 643م)

حياته: عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس اليمن وخطيب العرب وبطل القادسية، ينتهي نسبه إلى قحطان ويكنى أبا ثور. لقي لنبي صلى الله عليه وسلم لَدَى منصَرفه من تَبُوك سنة تسع من الهجرة فأسلم هو وقومه، ولكن قلباً شاب في الجاهلية الجهلاء، ورتع في الدماء والأشلاء، واستهتر في اللهو والصهباء، لا يُقْبِل على الدين بإخلاص وصدق، فارتدّ بعد إسلامه. ثم رجع إلى الحق وجاهد في سبيل الله حق جهاده. ثم شهد القادسية وعمره على ما قيل عشر سنين ومائة، فأبلى فيها بلاء حسناً. ثم توفي في أواخر خلافة عمر ابن الخطاب سنة 643م.

صفته ومنزلته: كان قوياً بديناً أكولاً، وكان سيداً مطاعاً وبطلاً شجاعاً وخطيباً شاعراً؛ يعد في الطبقة الثانية من الشعراء، وفي الأولى من الخطباء، ويغلب في شعره التحدث عن نفسه بالشجاعة. يقال: إن النعمان بن المنذر أرسله فيمن أرسل من سَراة العرب إلى أنُوشِروْان بالمدائن ليكون كلامهم بين يديه مصداقاً لدعواه في العرب وافتخاره بهم وتفضيله إياهم، فألقى هذه الخطبة:

إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فبلاغ المنطق السداد، ومِلاك النَّجعة الارتياد، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة. فاجتبذ طاعتنا بلفظك؛ واكتظم بادرتنا بحلمك، وألن لنا كنفك يكن لك قيادُنا. فإنا أناس لم يوْقّصْ صَفاتنَا قِراعْ مناقير من أراد لنا قضما، ولكن منعنا جمانا من كل من رام لنا هضما.

ومن شعره قوله في أُبيَّ الْمُرادي وقد توعده:

أعاذلَ شِكتي بدني ورمحي ... وكلُّ مُقَلّصِ سلس القياد

أعاذل إنما أَفنى شبابي ... وقرَّح عاتقي ثقل النجاد

تمناني ليلقاني أُبيٌّ ... ودِدْت وأينما مني ودادي

ولــو لاقيتنــي ومعــي ســلاحي تكشـف شـحم قلبـك عـن سـواد
أريــد حياتــه ويريــد قتلــي! عَـذيرَكَ مـن خليلـك مـن مُـراد!

وقوله:

لــيس الجمــال بمئــزر فــاعلم وإن ردَّيــت بُــردا
إن الجمــال معــادن ومناقــب أورثــن مجــدا
أعــددت للحــدثان ســا بغــة وَعَــدَّاء عَلَنْــدي!
نهــذْاً وذا شُــطَبٍ يَقُــدّ البــيض والأبــدان قــدا
كــم مــن أخ لــيِ صــالح بوَّأتــه بيــديَّ لحــدا
مــا إن جزعــت ولا هَلعــت ولا يــرد بكــاي رشْــدا
ذهــبَ الــذين أحــبهم وبقيــت مثــل الســيف فــردا

نماذج من النثر الجاهلي

من الأمثال

قالت العرب في أمثالها:

(إذا سَلمتِ الجلة فالنّيب هَدَرٌ) أي إذا سلم ما ينتفع به هان ما لا ينتفع به.

(إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) يضرب للمدل بنفيه إذا مُني بمن هو أدهى منه.

(إنك لا تجني من الشوك العنب) أي لا تجد عند ذي المنبت السوء جميلاً.

(ذكرني فوك حمارَىْ أهلي) أصله أن رجلاً خرج يطلب حمارين ضلَّا له، فرأى امرأة فأعجبته، فنسى الحمارين. فلما أسفرت عن وجهها رأى فمها قبيحاً فقال هذا المثل.

(تجَشَّأ لقمان من غير شِبَع) يضرب لمن يدَّعي ما ليس يملك.

(رمتني بدائها وانسلَّتْ) يضرب لمن يُعير الآخر بما يُعير هو به.

(ربَّ كلمة تقول لصاحبها دعني) يضرب في النهي عن الإكثار مخافة الإهجار

(أسّرْ حَسْواً في ارتغاء) يضرب لمن يريك أنه يعينك وهو يجر النفع إلى نفسه. وأصله أن الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة فيشربها وهو في ذلك ينال من اللبن.

(أوسعتهم سباً وأودَوْا بالإبل) أصله أن رجلاً أُغِيرَ على إبله فأُخِذَت، فلما توارى المغيرون بها صعد أكَمَةً وجعل يسبهم، ثم رجع إلى قومه فسألوه عن إبله، فقال هذا المثل.

(أحَشَفاً وسوء كِيلَة؟..) يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين.

(قد يحمل العَير من ذعر على الأسد) يضرب لمن يأخذه الدهش والرَّوع فحمله على ما ليس من طبعه.

(قبل الرَّمْى يُراش الشهم..) يضرب للاستعداد للأمر قبل نزوله.

من الحكم

ومن حكم العرب قولهم:

مصارع الرجال تحت بروق الطمع. كلْمُ اللسان أنكى من كلم السنان. رب عَجلة تهب رِيثاً. العتاب قبل العقاب. التوبة تغسل الحوبة. من سلك الجدد أمن العثار. أول الحزم المشورة. رب قول أنفذ من صول. أنجز حرماً وعد. أترك الشر يتركك. من ضاق صدره اتسع لسانه. يدك منك وإن كانت شلاء. رب ملوم لا ذنب له. مِن مأمنه يؤتي الحذِر.

الخطب

قال هانئ بن قبيصة الشيباني لقومه يحرضهم، وهو يدلك على مذهب الجاهلين في النثر من تفكك المعاني وضعف ارتباط الجمل:

يا معشر بكر! هالك معذور، خير من ناج فرور. إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر. المنية ولا الدنية. استقبال الموت خير من استدباره. الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور. يا آل بكر، قاتلوا فما من المنايا بد!.

وخطب عبد المطلب عند سيف ابن ذي يزن بعد انتصاره على الحبشة قال:

وإن الله تعالى أيها الملك أحلك محلاً رفيعاً، باذخاً شامخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته، ونبل أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن وأطيب موطن، فأنت أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعلقها الذي إليه تلجأ العباد. سلفك خير سلف، وأنت لنا بعده خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمل من أنت سلفه. نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا بكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة.

من الوصايا

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه قال:

يا بني قد كبرت سني، وبلغت حرصاً من دهري، فأحكمتني التجارب، والأمور تجربة واختبار. فاحفظوا عني ما أقول وعوه: إياكم والحور عند المصائب، والتواكل عند النوائب، فإن ذلك داعية للغم، وشماتة للعدو، وسوء ظن بالرب، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه ما سخر قوم قط إلا ابتلوا، ولكن توقعوها، فإن الإنسان في الدنيا غرض تعاوره الرماة. فمقصر دونه، ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله، ثم لابد أن يصيبه.

وأوصت أعرابية ابنتها ليلة زفافها قالت:

أي بنية! إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك. ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، لكنت أغنى الناس.

أي بنية! إنك فارقت الجو الذي خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه. فاحملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً: اصحبيه بالقناعة، وعاشريه بحسن السمع والطاعة، وتعهدي موقع عينيه فلا تقع عينه منك على قبيح، ثم اعرفي وقت طعامه، واهدئي عند منامه. فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مبغضة. ثم اتقي مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحاً، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد الناس له إعظاماً، يكن أشدهم لك إكراماً. واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت أو كرهت. والله يخير لك.

وأوصت أعرابية ولدها قالت:

أي بني! إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين. وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً. وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلّمته حتى يهي[1] ما اشتد من قوته. وإياك والجود بدينك والبخل بمالك. وإذا هززت فاهزز كريماً يلنْ لهزتك، ولا تهزز لئيماً فإن الصخرة لا ينفجر

---

(1) يهي: يضعف.

ماؤها. ومثَّل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه.

ومن كانت مودَّته بشرَه وخالفَ منهُ فِعلُهُ، كان صديقه منهُ على مثل الريح في تصرفها. والْغَدْرُ أقبح ما تعامل به الناس بينهم. ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحُلة رَيْطّها وسربالها[1].

(1) كل ثوب رقيق يشبه الملحفة. السربال القميص.